

محطات تاريخية

التصوف في الأندلس: بين التجربة الروحية والتأثير الفلسفي حتى السقوط

لجنة البحوث والدراسات بمجلة مدارك



يُعدّ التصوف في الأندلس أحد أكثر المسارات تعقيدًا في التاريخ الإسلامي الغربي؛ لأنه لم ينشأ بوصفه حركة انزال روعي فحسب، بل تشكّل داخل بيئة حضارية كثيفة التفاعل بين الفقه، والحديث، والكلام، والفلسفة، والأدب، والسياسة. ولهذا لم يكن التصوف الأندلسي نسخة مكررة من التصوف المشرقي، بل تجربة مخصصة أنتجت خطابًا روحيًا ذا حسّ معرفي عالٍ، ودفعت لاحقًا إلى ولادة واحد من أوسع المشاريع الميتافيزيقية في الإسلام، وهو مشروع

ابن عربي. ومن ثم فإن دراسة التصوف في الأندلس لا تُفهم على وجهها الصحيح إلا إذا قُرئت في ثلاث طبقات متداخلة: طبقة الزهد والتعبد المبكر، وطبقة التكوين الصوفي المنظم، ثم طبقة التفاعل العميق مع الفلسفة والتأويل قبل أفول الأندلس السياسي وسقوط غرناطة سنة 1492م.

في مرحلته الأولى، لم يظهر التصوف في الأندلس بوصفه طرّفًا كبرى مستقرة كما عُرف لاحقًا في المغرب والمشرق، بل بدأ أقرب إلى نزعات زهدية ومحاسبية وتعبد فردي داخل مجتمع غلب عليه نفوذ الفقهاء والمالكية. ولهذا كان تشكل الخطاب الصوفي الأندلسي أبطأ وأكثر حذرًا من بعض البيئات الشرقية. ومع ذلك، فإن القرنين الثالث والرابع الهجريين شهدا بروز شخصية محورية هي ابن مسرّة المتوفى سنة 319هـ/931م، الذي يُعدّه عدد من الباحثين من أوائل المؤسسين للمسار العرفاني الأندلسي.

وتجمع المصادر الحديثة على أن أثره لم يكن سلوكيًا فقط، بل فكريًا أيضًا، إذ ارتبط اسمه بتقاليد تأويلية وتأملية ذات صلة بما اصطلح عليه بعض الدارسين بـ التيار الفلسفي-العرفاني في الأندلس. وتذكر بريتانكا أن ابن مسرة عُرف بصلته بمذاهب ذات طابع فلسفي منسوبة إلى التراث الإمبريدوقلي المزعوم، كما تؤكد دراسات حديثة أن أثره ظل ممتدًا في أجيال لاحقة من متصوفة الأندلس. ومع أن ابن مسرة تعرّض في الذاكرة الإسلامية لوصف متردد بين المتصوف و الفيلسوف و صاحب المقالات ، فإن أهميته الحقيقية تكمن في أنه مثل لحظة مبكرة لاندماج التجربة الروحية بالتأمل النظري. فالتصوف الأندلسي منذ بداياته لم يكن مجرد سرد لكرامات وزهد، بل كان قابلاً لامتصاص اللغة الفكرية وإعادة توظيفها روحياً. ولهذا اختلفت قراءته بين من رأى فيه مؤسسًا لتيار صوفي باطني، ومن رأى فيه حلقة من حلقات الفلسفة الإسلامية في الغرب الإسلامي. هذه الازدواجية نفسها ستصبح لاحقًا من أهم سمات التصوف الأندلسي كله.

وفي القرن الخامس وأوائل السادس الهجريين دخل التصوف الأندلسي مرحلة أكثر نضجًا وانتشارًا، مع بروز أسماء مثل ابن برّجان الإشبيلي المتوفى سنة 536هـ/1141م، وابن العريف المتوفى سنة 536هـ/1141م. وقد وصفت دراسات حديثة ابن برجان بأنه من أبرز من شكّل المنهج العرفاني المتعلم في الأندلس، حتى لقبه بعض الباحثين بـ الغزالي الأندلسي لما مثله من جمع بين التفسير، والحديث، والتأمل العرفاني. كما تشير الأدبيات إلى أن ابن العريف كان شخصية مؤثرة في ألمرية وما حولها، وأنه ارتبط أيضًا بالميراث المسري السابق. وتكمن أهمية هذين الاسمين في أنهما نقلًا التصوف من طور البذور الفردية إلى طور المدرسة الروحية ذات الملامح الواضحة، حيث صار للتجربة الصوفية خطاب تفسيري، ومصطلح تربوي، وجمهور من الأتباع، ومكانة داخل المجال الديني العام.

غير أن هذا الصعود لم يكن هادئًا تمامًا؛ فقد شهدت الأندلس أيضًا معارضة فقهية وسياسية للتصوف في بعض مراحلها، خاصة حين بدا لبعض الفقهاء أو السلطات أن بعض الخطابات الصوفية تتجاوز الحدود المألوفة، أو تميل إلى التأويل الباطني، أو تجذب العامة على حساب السلطة العلمية التقليدية. وتشير دراسة ماريا فييرو حول معارضة التصوف في الأندلس إلى أن التاريخ الصوفي هناك لا يمكن قراءته بوصفه مسار قبول متصل، بل هو تاريخ شدّ وجذب بين أهل السلوك وبعض الفقهاء وأجهزة السلطة.

وهذا مهم؛ لأن التصوف الأندلسي لم يتطور في فراغ، بل تحت عين مجتمع علمي قوي، فيه قضاء ومالكية وسلطة سياسية تتحسس من كل خطاب قادر على تكوين ولاء موازٍ.

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري، يظهر اسم أبي مدين شعيب بوصفه الجسر الأكبر بين الأندلس والمغرب في تاريخ التصوف الغربي. وتذكر موسوعة الإسلام الثالثة أن أبا مدين كان من منطقة إشبيلية، ثم استقر في فاس أواخر العهد المرابطي، وصار لاحقاً أحد أكبر الأسماء الصوفية في الغرب الإسلامي، وتوفي قرب تلمسان سنة 589هـ/1193م أو 594هـ/1198م .

وعلى الرغم من أن شهرته الكبرى ترسخت في المغرب الأوسط والأقصى، فإن جذوره الأندلسية شديدة الدلالة؛ لأنه يمثل لحظة انتقال التصوف الأندلسي من الإطار المحلي إلى الفضاء المغاربي الرحب. وتجمع الدراسات على أنه جمع عناصر أندلسية ومغربية ومشرقية في نسق واحد، وأن أثره في الأجيال التالية كان حاسماً، حتى إن كثيراً من الأسانيد الصوفية الغربية تدور عليه أو تتصل بدائره.

ومع أبي مدين يتضح أن التصوف الأندلسي لم يكن محصوراً في التجربة الفردية الداخلية، بل أصبح أيضاً شبكة تعليم وتربية وانتقال جغرافي. فقد صار للشيخ مركز، وللصحبة دور، وللنص التربوي وظيفته، وللعلاقة بين الأندلس والمغرب أثر متزايد في تداول الرجال والمفاهيم. ومن هنا فإن من الخطأ أن نتصور التصوف الأندلسي كظاهرة جغرافية مغلقة؛ فمع القرن السادس الهجري صار جزءاً من المجال الروحي للمغرب الإسلامي كله.

غير أن الذروة الفكرية الكبرى لهذا المسار تتجسد في محيي الدين ابن عربي، المولود في مرسية سنة 560هـ/1165م، والذي تلقى تربيته العلمية المبكرة في إشبيلية، ثم رحل في الأندلس والمغرب قبل أن يغادر الغرب الإسلامي سنة 1201م تقريباً متجهاً إلى المشرق، حيث استقر أخيراً في دمشق وتوفي سنة 638هـ/1240م. وتؤكد موسوعة ستانفورد وبريتانكا أن ابن عربي درس العلوم الإسلامية على عدد كبير من الشيوخ في الأندلس والمغرب، وأن مشروعه المعرفي اللاحق كان بالغ التأثير في التصوف والفلسفة والكلام معاً. هنا يبلغ التصوف الأندلسي أقصى درجات التداخل بين التجربة الروحية والتأثير الفلسفي؛ إذ لم يعد التصوف مجرد أخلاق ومجاهدات، بل تحول إلى رؤية كونية متكاملة

في الوجود والمعرفة والإنسان والخيال والبرزخ والحقائق الإلهية.

ولا يمكن فهم ابن عربي بمعزل عن السياق الأندلسي الذي سبقه؛ فالدراسات الحديثة تؤكد أن عددًا من مفاهيمه الميتافيزيقية له جذور في البيئة الصوفية الأندلسية السابقة، وخاصة لدى ابن مسرة وابن برجان. وقد صرحت دراسة منشورة سنة 2021 بأن هدفها تتبع أصول بعض مفاهيم ميتافيزيقا ابن عربي وكوسمولوجياه في المتصوفة الأندلسيين السابقين عليه. وهذا يعني أن ابن عربي لم يكن انفجاريًا فكريًا بلا مقدمات، بل كان حصيلة نضج طويل في الأندلس، حيث التقت الروحانية بالتأويل، والتجربة الفردية بالهندسة المفهومية، حتى أخرجت مشروعًا سيصير لاحقًا المرجع الأكبر في التصوف الفلسفي .

ومن أبرز ما يميز التصوف الأندلسي قبل السقوط أنه لم يتطور في عزلة عن الفلسفة الأندلسية المشهورة بأسماء مثل ابن باجة وابن طفيل وابن رشد، وإن لم يكن هؤلاء صوفية بالمعنى الطرقي. فالبيئة الأندلسية نفسها كانت بيئة عالية الكثافة في الجدل حول العقل والوحي والتأويل والوجود. ولهذا اكتسب التصوف الأندلسي لغة معرفية أكثر تركيبًا من مجرد الأدبيات الزهدية، واستفاد من المناخ الفكري العام في إنتاج صيغ تجمع بين الذوق والبرهان، أو بين الكشف والتأويل، أو بين الإشارة الصوفية والنسق الفلسفي. وليس المقصود بذلك أن كل تصوف أندلسي كان فلسفيًا، بل أن الفلسفة كانت جزءًا من الأفق الذي تحرك داخله التصوف، فأثرت في مفرداته وطرائق تعبيره ومستوى تجريبه.

ومع القرن السابع الهجري وما بعده بدأ السياق السياسي يتغير بحدة. فقد تلقت السلطة الموحدية في الأندلس ضربة فاصلة بعد معركة العقاب/Las Navas de Tolosa سنة 1212م، وتذكر بريتانكا أن قوة الموحدين في جنوب إسبانيا تفككت بعد هذه الهزيمة. ومنذ ذلك الحين أخذ المجال الإسلامي الأندلسي ينكمش تدريجيًا، حتى انحصر في مملكة غرناطة النصرية. هذا التحول السياسي لم يكن مجرد تغيير حدود، بل كان تغييرًا في بنية الحقل الديني نفسه: فحين يتقلص العمران الإسلامي وتشتد الضغوط العسكرية والسياسية، تتغير وظائف التصوف من البناء والتوسع إلى الحفظ والتماسك الروحي والرمزي.

وفي مملكة غرناطة الأخيرة استمر حضور التصوف، لكن ضمن شروط أكثر هشاشة. فقد بقيت التقاليد الروحية والعلمية فاعلة، وبرزت أسماء لاحقة في الغرب الإسلامي ذات صلة بالتراث الأندلسي، إلا أن السقف التاريخي كان قد انخفض؛ لم تعد الأندلس فضاءً منتجًا بالحجم نفسه الذي عرفته في قرونها السابقة، بل صارت قلعة أخيرة تحاول الموازنة بين الشرعية الدينية والبقاء السياسي. وحين سقطت غرناطة في 2 يناير 1492م انتهت آخر دولة إسلامية مستقلة في الأندلس. ولم يكن هذا مجرد سقوط عسكري، بل نهاية الإطار الاجتماعي الذي احتضن التصوف الأندلسي قرونًا. ومن ثم انتقل كثير من تراثه، مادياً ومعنوياً، إلى المغرب والمشرق، بينما دخل من بقي من المسلمين في إسبانيا طور التضييق ثم الطرد والتنصير القسري.

وعليه، فإن عبارة حتى السقوط لا تعني أن التصوف انتهى يوم سقوط غرناطة، بل تعني أن مركزه الأندلسي انتهى، أما أثره فاستمر خارجها بقوة. فتراث ابن عربي انتشر في الشام والأناضول ومصر والمغرب، وأثر أبي مدين ترسخ في المغرب الكبير، واستمرت الذاكرة الأندلسية داخل التقاليد الصوفية المغاربية في النسب والذوق والمقامات والمرويات. بهذا المعنى، سقطت الدولة ولم يسقط الأثر؛ بل ربما أمكن القول إن بعض أعمق آثار التصوف الأندلسي لم يظهر على اتساعه إلا بعد انقضاء موطنه الأصلي.

خلاصة المسار التاريخي أن التصوف في الأندلس مرّ من الزهد الفردي إلى المدرسة الصوفية المتعلمة، ثم إلى التركيب الفلسفي العرفاني. وقد مثل ابن مسرة طور التأسيس المبكر، وابن برجان وابن العريف طور النضج المدرسي، وأبو مدين طور الامتداد الغربي الواسع، ثم مثل ابن عربي الذروة النظرية التي جعلت من التصوف الأندلسي أحد أكثر التيارات الإسلامية تأثيراً في الفكر اللاحق. لكن هذا الازدهار الفكري لم ينجُ من مصير الأندلس السياسي؛ فكلما تقلص الجسد الحضاري تراجعت قدرة الحاضنة الأندلسية على إنتاج مزيد من التحولات الداخلية، إلى أن جاء سقوط غرناطة فأنهى الإطار السياسي والاجتماعي الذي نشأ فيه هذا التراث. وهكذا يبقى التصوف الأندلسي شاهداً على مفارقة لافتة: كلما اقتربت الأندلس من نهايتها السياسية، كان أثرها الروحي والفكري يتهدأ لاننتشار أوسع خارج حدودها.

المصادر:

- .Stanford Encyclopedia of Philosophy, Ibn Arab
- .Encyclopaedia Britannica, Ibn al-Arab ; Ibn Masarra; Granada ; Andalusia ; Al-Andalus 2-
- .Michael Ebstein, Mysticism and Philosophy in al-Andalus: Ibn Masarra, Ibn al-Arab , and the Islamic Tradition 3-
- .Yousef Casewit, The Mystics of al-Andalus: Ibn Barraj n and Islamic Thought in the Twelfth Century 4-
- .Maribel Fierro, Opposition to Sufism in al-Andalus 5-
- .Encyclopaedia of Islam Three, Ab Madyan 6-
- .(G. L pez-Anguita, Ibn Arab s Metaphysics in the Context of Andalusian Mysticism, Religions (2021 7-